«البيروسترويكا» في الأدب السوفياتي...

اعداد: رنا ادريس

تجد روسيا(*) من جديد هِبَةَ الكلمة بعد سبعة عقود من الرقابة. إنه استكشاف موضوعات أدبية تنفتح أمام كتّاب أُبعِدوا منذ عهد قريب ويظهر خلالها جيل جديد من الكتّاب.

يخيّل للمرء أن الأدب الروسي أصبح وطن الروس. يقول «جورج نيفا»(1) إن هذا الوطن يلتحم ثانية بين الهجرة والبلد الأصلي، وطن روحاني مصنوع من القلق للعثور ثانية على الحقيقة والعدل. ويبرز درس من تلاطم أمواج تلك النصوص التي أعيد احياؤها، وهو أن سبعة عقود من الرقابة لم تغيّر شيئاً من الطبيعة البشرية. إن تلك الطبيعة تظهر من جديد قَلِقةً وماكرة ومتعدّدة الأشكال. وتستعيد روسيا الكلام، بعد أن رفعت الكُمامة عنها. وبالرغم من هذا، يبقى الطلاق بين شهود غير انسانيين تتضاعف نصوصهم اليوم، وجيل شاب يتغذّى سراً بأدب «نابوكوف» ويطمح إلى خلق أدب «ما بعد حديث»، ساخر وعجيب، أدب لا تلوح فيه الكمامة إلا عن بُعد. ولم يعد ثمة من «منطقة محرّمة» في الأدب الروسي، إلا أن ثمة وقت انتظار مقلق: فماذا بعد تطهير المحرمات القديمة هذا؟ أية كلمة جديدة سيُنطق بها؟ إن الأضداد تتفاقم اليوم في روسيا السوفياتية، بين التقليديين والليبراليين. وحتى وإن استمر هذا التطور على الشكل نفسه، فعلى الأطراف أن تتعلم إدارة هذه الخلافات.

(*) عن «الماغازين ليتيرير» الفرنسية عدد ٢٦٢، آذار ١٩٨٩.

(١) جورج نيفا: أستاذ أدب روسي في جامعة جنيف. صدر له دراسة عن «سولجنتسين» وكتاب «نحو نهاية الاسطورة الروسية». وساهم في تأليف «تاريخ الأدب الروسي».

لم يعايش أي جيل في الوقت الحاضر تجربة كالتجربة السوفياتية.

عودة الكلمة

إن شراهة حقيقية استولت على روسيا السوفياتية. فالأصدقاء يفلسون من دفع الاشتراكات في مختلف المجلات، ويتبادلون الأعداد، ويتسارعون من كشك الى آخر. إن البيروسترويكا لم تأخذ معناها الكامل إلا في الحقل الأدبي: فاليوم يُنشر كل شيء، أو تقريباً كل شيء، من الأدب الذي كان ممنوعاً لعدة عقود، وكل شيء تفوح منه رائحة المحرّمات، كل شيء نُشر «هناك»، أي في «الغرب»، كل الذي أنتجته موجة المهاجرين الأولى، والذي كان يُتداول سراً تحت المعطف. فلقد كان «الخنق» محكماً بين عهد «خروتشيف» وهذا العهد، الى حدّ أن مذخور النصوص غير المنشورة، المخبأة تحت الأنابيب، والأفلام التي تم إخراجها، ولكنها خُبئت في البرادات من قبل الرقابة، هذا المذخور يكاد لا ينضب. إن الاتحاد السوفياتي اليوم يستهلك بحرارة ولذّة كل الأشياء التي كدّسها من المذخورين اللذين يملكها هذا البلد: الهجرة وخزنة الرقيب. بالإمكان تغذية الشعب من هذا القوت المحرّم لبضع سنوات، إلا أن من الواضح أن هذا المذخور، كسائر المذاخير الأخرى، سيستهلك بدوره. وعندها ستدق أجراس الحقيقة، أي عندها يحين الوقت للتحديق في الحاضر، ومعايشة الحاضر، والإبداع الجديد. «كم الساعة الآن؟»، يسأل أحد النقّاد الجدد، ستالیناف راسادين. ويعلن الشاعر «الكسندر كوشنير»، أحد أنقى الأصوات الشعرية اليوم، وأكثرها فلسفة وعمقاً: «كالصبي، الذي يقرأ مرتعشاً رسالة البنت، نقرأ اليوم الصحف..»

ما هي البيروسترويكا؟

البيروسترويكا كلمة قديمة من القرن التاسع عشر، وتعني في الوقت نفسه «تنقيحاً» للروح الداخلية وإعادة بناء مسألة ما أو إعادة تنظيم الدولة. وقد تكون كلمة «الإصلاح» العربية هي الأقرب لمفهوم هذه الكلمة. و«البيروسترويكا» التي أصبحت عنواناً لكتاب كتبه ميخائيل كورباتشيف ووزّع في السوق العالمية عام ١٩٨٧ ـ ترمز الى الاصلاح الذي تنادي به السلطة الحالية: اصلاح كل فرد لتصرفاته واصلاح البنى العامة للمجتمع والاقتصاد.

شاهدوا «غير الانساني»

إن النصوص الكبيرة التي تتناول الخوف الستاليني، ونظام العبودية التي خلّفها «الكولاك»، والتدمير الذي أحدثه هذا الأخير داخل المجتمع السوفياتي، والرعب والأكاذيب وعدم تحمّل المسؤوليات ـ إن هذه النصوص غير قليلة. ويذكر من هذه النصوص التي كانت ممنوعة منذ وقت قصير وبُعثت اليوم، كتاب «الحياة والقدر» «لفاسيلي كروسمان» (Vassili Grossman) وكتاب «مَلَكَة اللاجدوى» ليوري دومبروفسكي (Iouri Dombrovski) أو أشعار آنا اخماتوفا (Anna Akhmatova) الرائعة، التي حفظها الكثيرون عن ظهر قلب، ولكنها لم تنشر حتى اليوم في الاتحاد السوفياتي. فكل هذه المنشورات تلعب دوراً تطهيرياً في الكيان الذي أرهقته الأكاذيب والذعر في المجتمع السوفياتي. «أن لا يعيش المرء حسب الأكاذيب»، ذلك هو عنوان البيان الشهير الذي كتبه «سولجنتسين» عام ١٩٧٢، ولم ينشر في الاتحاد السوفياتي، في مجلة تصدر من مدينة كياف، إلاّ هذه السنة. لقد احتفل بعيد سولجنتسين السبعين بمختلف الطرق في الاتحاد السوفياتي، إذ أن العديد من المكتبات ودور السينما قد نظمت سهرات غير رسمية من أجل الكاتب الغائب. وأهم هذه الظواهر الخطاب الذي ألقاه في «بيت الهندسة»، الناقد والناشر «آناتول ستريلياني» (Anatole Streliany)، الذي أعلن: «ان سلطتنا قد ارتكبت عدداً لا بأس به من الأخطاء في المجال الاقتصادي والسياسي الخارجي والداخلي، ولكن لا شيء يفوق عدد الأخطاء التي ارتكبتها السلطة في ميدان الأدب والشعر. كان يكفي أن يفتح أي كاتب جديد فمه حتى تمنحه سلطتنا «تقديراً» لا يمكن للوقت أن يخفّف من آثاره. فلنفكر ببلاتونوف (Platonov) أو اخماتوفا (Akhmatova) إلا أن مَثَلَيْ «سولجنتسين» و«برودسكي» (Brodski) يكفيان وحدهما لجعلنا نتعرف على حدّة الذهن التي تتميّز بها سلطتنا السوفياتية فيما يتعلق بنقدها الأدبي(. . .) ماذا سيحدث الآن؟ هل سنرى رجالاً وعوامل سينجحون في تغيير شيء ما، وسيبدأون بما نصح به سولجنتسين لبريجنيف وسوسلوف: رجال وعوامل سيحرّرون الانسان، ويتحرّرون من الايديولوجية، وسيلغون، مرة وللأبد، روزنامة القدّيسين(. . .) ما من أحد يمكنه الآن أن يجيب على هذه الأسئلة، إلا أن ثمة حقيقة أكيدة: أن بلدنا مع سولجنتسين كان سيكون مختلفاً تماماً عن بلدنا دون سولجنتسين». (حديث نشر في المجلة المنشقّة «ريفيرندوم»). بالمقابل، يمكننا أن نقرأ رأي أمين عام اتحاد الكتاب السوفياتيين، فلاديمير كاربوف (Vladimir Karpov)، الذي يقول إن صدور مؤلفات «سولجنتسين» لن تحمل أي جديد، بعد صدور موجة النصوص ضد ستالين. إلاّ أن «سولجنتسين»، بنظر «جورج نيفا»، يحمل شيئاً جديداً هاماً جداً، وهو اتساع التحقيق الذي ينطلق من العنف اللينينيّ، ويشمل الخوف الستاليني مسيرة العنف العامة التي تحملها داخلها أية يوطوبيا. ولقد نشرت جريدة «Knijnoie Obozneri» في شهر أيلول الماضي، سلسلة من رسائل كتّاب وقرّاء يطالبون بإصدار مؤلفات سولجنتسين. وقد كان شرط سولجنتسين الوحيد لنشر مؤلفاته في الاتحاد السوفياتي البدء بنشر النص الكامل لكتاب «أرخبيل الكولاك»: الا أن الاعلان عن صدور هذا الكتاب ما لبث أن منع من الصحف. لماذا؟ لأن هذا الكتاب يطعن بصفاء المشروع اللينيني، الذي يبقى اليوم، في الاتحاد السوفياتي، من المحرمات المطلقة[1].

ولكننا لا ننسى، بالطبع، أهم الانتاج الأدبي في تلك الفترة، وهو كتاب «دكتور زيفاكو» لبوريس باسترناك (Boris Pasternak). وقد نشرت مجلة (Gorizont) «آفاق»، عام ١٩٨٨، وثيقة مهمة تتضمن مطالبة اتحاد الكتاب المسكوفيين عام ١٩٥٨ بطرد باسترناك من اتحاد الكتاب السوفيات، بعد أن نال جائزة نوبل. وهذه الوثيقة تتحدّث وحدها عن نذالة وعبودية الكتّاب المنهمكين بكسب الخطوات الرسمية عن طريق الوشاية بـ «الخائن».

ولا يزال العديد من هؤلاء الكتاب على قيد الحياة. وتطالب بعض الأصوات الشابة اليوم أن تسلّط الأضواء على الحقيقة. ونشهد استجواب الجيل القديم من قبل الجيل الشاب: «اشرحوا لنا كيف كان بإمكانكم أن تكونوا ضعفاء الى هذا الحد!»

والحق أن النقد يلعب الدور الأساسي في إعادة الشباب

---

(١) سنتناول هذا الموضوع بالتفصيل في الفقرة عن «الواقعية الاشتراكية» في هذا الملف.

الى البنية الاجتماعية. . وللنقد الروسي تقليد قديم يسمى «بابليتسيستكا» (Publitsistika)، أي مناقشة المشاكل الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية من خلال الأدب، ولكن بأي مصادر نستعين؟ يقول المؤرخ «أيوري أفناسيف» (Iouri Afanassiev) اننا اذا أردنا أن نحلّل اليوم معرفتنا بالتاريخ، فعلينا أن نعترف أن ليس ثمة أي بلد في العالم لُوي عُنُقُ تاريخه كبلدنا نحن!»

البحث عن المصادر

إذن، فالمسألة الأولى تبقى مسألة البحث عن المصادر، وبالتالي محاولة تجديد النظرة التي تلقيها روسيا على ماضيها. وهذا البحث يبدأ بإصدار مؤلفات المؤرّخين الكبيرة في القرن التاسع عشر: «تاريخ الدولة الروسية» «لكرمزين» (karamzine)، الذي كان يعتبر لفترة طويلة من الزمن المدافع عن طبقة النبلاء، ومستشار الكسندر الأول المحافظ؛ أو «تاريخ روسيا» للمؤرخ «سيرج سولوفياف» (Serge Soloviev). وتضاف الى إعادة إصدار هذه الأعمال الهائلة مقالات لا تحصى حول ملامح الحضارة الروسية المنسية أو الضائعة، والحياة الدينية والشعبية الروسية، وأساطير روسية اختفت عن الوجود. فثمة عدة مقالات تنشر اليوم مثلاً عن تهديم «معبد المنقذ» عام ١٩٣٧، وهو عبارة عن كنيسة ضخمة بُنيت في موسكو في عهد نقولا الأول. ويذكر أن هذا المعبد هدّمته أصابع الديناميت بأمر من ستالين. ويقول الأكادمي «ليخاتشيف» (Likhatchev) إن «الذاكرة أقوى من الوقت». و«ليخاتشيف» هو محرّر مجلة تصدر في لندن، وتكشف هذه المجلة مجموعات من اللوحات الخاصة، لرسامين منسيين أو مهاجرين، أو كتابات لكتّاب كان مغضوباً عليهم، كالكاهن والفيلسوف «بافيل فلورانسكي» (Pavel Florenski)، مؤلف كتاب «العمود وأساس الحقيقة» (١٩١٦)، والذي مات في المعتقل ـ وتشهد أعماله اليوم في الاتحاد السوفياتي اهتماماً لا يصدق. كما تنشر هذه المجلة أعمال الفلاسفة المسيحيين الروس في القرن العشرين، ومناقشات حول محافظة أفضل لأرشيف الروس، لتربية عامة في سبيل معرفة الماضي. أما مجلة «تراثنا»، فتهتم بما كانت مجلات بداية القرن العشرين تعنى به، كتطوّر الذوق، وضعف الالتزام السياسي، وعطش رائع للغزوات الفكرية ـ وقد سُميّت هذه الفترة «بالنهضة الروسية».

ردة فعل «المحافظين»

ليس لأكتشاف الماضي هذا جوانب جمالية فحسب. فهو يتخذ، لا محالة، طابعاً سياسياً، اذ أن الأمر يتعلق، في نهاية المطاف، بمعرفة أية قيم ستتبع روسيا اليوم، هذه الروسيا التائهة والعصبية، والباحثة عن أدوية لمعالجة «فقر دم» مطوّل. هل ستتبع الإصلاح الاشتراكي؟ أو العودة الى قيم المسيحية الروحانية؟ أو الوطنية الروسية؟ ومن هم المحافظون؟ إن الكاتب الرئيسي بينهم هو السيبيري الأصل «فالنتان راسبوتين» (Valentin Raspoutine). وهو كاتب

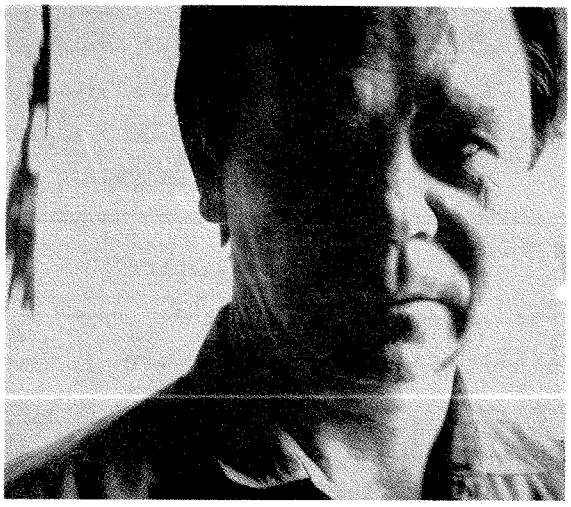

راسبوتين (Raspoutine): يريد أن يساعد في ولادة ضمير ديني روسي جديد.

محتشم وتأملي، ومؤلف حكايات منذ الستينات شبيهة بالأساطير المحلية، لكنها تتخذ عنف الكلمة الانجيليّة. إن حكاية «عِشْ وتذكّر»، وحكاية ابتلاع بحريّ لقرية «بحيرة ماتيورا» هما قصائد عن الأرض. وقد صدر كتاب «الحريق» العام الماضي، وهو دون شك أجمل اسطورة مأساوية كتبها حتى اليوم ـ وتصبح دناءة رجل نهّاب وجشع ظهرت أثناء حريق في مخزن في القرية، استعارة لروسيا بأكملها. وفلسفة هذا الكتاب، كما قال المؤلف، تتلخص بالآتي: «أن يضحّي المرء بنفسه من أجل الحقيقة، أو أن يناضل ضدّ النسيان». إن هذا التجديد الحاضر لم يبدأ بالنسبة له مع البيروسترويكا، بل إنه تجديد روحاني سابق، إلا أن هذا التجديد يجد في «الدقرطة» الحالية طاقة ثانية. إن قلق «راسبوتين» يأتي من شعوره بضيق ذاكرة بلاده التاريخية. وفي حديث له بثّه التليفزيون السوفياتي العام الماضي، تكلّم بصراحة عن الجوانب التي يأخذها على «الحداثويين». فيقول إنه لا يرى حتى الآن ظهور الأدب الجديد الذي يعبّر عن الوقت الحاضر، وهو ينتظر شيئاً مختلفاً عن ابتعاث النصوص التي مُنعت أو بُترت سابقاً. إنه يريد أن يساعد في ولادة ضمير ديني روسي جديد. ويأسف «راسبوتين» لهذا التأخر المأساوي لدى نفسه وبعض المفكرين الروس في قراءة ومعرفة المفكرين الذين حللوا قبلهم مسألة الاشتراكية والايمان: «. . . إننا

نغيّر الآن قواعد بيتنا الداخلية، وأقصد البيروسترويكا، دون أن نلاحظ أن هذا البيت ينزلق نحو الهوّة» وهنا يكمن جوهر رسالة هذا الكاتب. فلقد أضاع الإنسان اتصاله بالأرض، والتوتاليتريّون اندفعوا في ملحمة صناعية تدمّر البيت «الأرض». وقد أدّى تحطيم الذّرة الى تدمير اللغة والعقل.

معسكر الليبراليين

يقف في وجه «المحافظين»، «الليبراليون»، الممثلون بالمؤرّخ «ناتان آيدلمان» (Natan Eidelman)، والكاتب «أندريه بيتوف» (Andŕe Bitov)، يقول آيدلمان «في روسيا، تأتي الثورة دائماً من فوق،» وذلك منذ عهد «بطرس الكبير

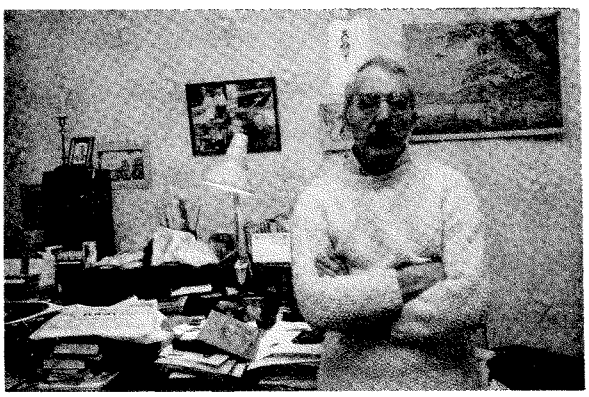

آندريه بيتوف (Andŕe Bitov): الأديب ما بعد الحديث، الذي أعاد اختراع نابوكوف دون أن يعلم هو نفسه بذلك.

والكسندر الثاني». وهذا المؤرخ، الذي هو قصّاص تاريخي ماهر ومتلاعب بارع في الاكلام، يستعمل التاريخ بطريقة تختلف تماماً عن الطريقة التي يستعمله بها المحافظون. ويتمركز أحد مواضيع أبحاثه على صورة المستقبل التي كان يتخيلها المرء في الماضي: آفاق المستقبل الذي كان يتوقعه ارستقراطي «كبوشكين» (Pouchkine). ويطرح آيدلمان أيضاً مسألة صورة المستقبل التي يتخيلها معاصرو اليوم في روسيا السوفاتية، بعد أن سيطرت لمدة طويلة، فكرة التقدم والثورة، وبالتالي نظرة يوطوبية وبروميتية للأشياء؛ لقد أصبح هذا المستقبل اليوم غامضاً: الخوف من كارثة بيئية، الحاجة الي التحديث على الطريقة الغربية، البحث عن عصر ذهبي لروسيا مفقودة: ان السوفيات يائسون، ويعتقد آيدلمان أن «الثورة من فوق» تبقى الاتجاه الأكثر فعالية في آفاقهم الثقافية والسياسية. حتى أن آيدلمان يشرح «الثورة البولشيفية» «كثورة من فوق»، بمعنى أن الأكثرية لم تكن للبولشفيين الا في بيترسبورغ، وأن العاصمة قمعت بقية البلاد.

أما المعلم المُسلّم به للأدب الذي يمكن تسميته، على الطريقة الأميركية، «ما بعد الحديث» فهو «أندريه بيتوف»، الذي أعاد اختراع فلاديمير نابوكوف (Vladimir Nabokov) دون أن يعلم ذلك، نابوكوف الذي هو الآن معبود الكتّاب الشباب في عصر البيروسترويكا. وبيتوف يلزق النصوص، ويخرجها، ويجعل منها «نصوصاً ـ متاحف»، ويختلط البحث عن أب هرب من المعسكر الى الأدب، والى تنوعات على الأساطير الرومنطيقية الروسية، والى مدينة «دوستويفسكي» الخارقة. الا أن لعبة «بيتوف» المعقدة هي قبل كل شيء استيهام حريّة عبر الأدب. ويقول بيتوف أن اللاواقعية هي وضع من أوضاع الحياة. تماماً كالمعاناة. ويوضح أن المعاناة كانت ولا تزال جانباً من الحياة اليومية في روسيا. اليست البيروسترويكا «معاناة»؟ تأخيراً؟ استداركاً لا يخلو من جانب مأساوي؟ إن كل انشقاق في التاريخ يخلّف جهلاً وعدم خبرة وبالتالي يخلّف معاناة.

كما أن ثمة إنتاجاً مليئاً بالسحر، ومحاولات نفسية تلمس غالباً الخارق، وتطير على أجنحة الأساطير. ويمكن تسمية هذا الأدب «بما بعد الحديث». إنهم كاتبو القصة القصيرة كتاتيانا تولستوي (Tatiana Tolstoi)، حفيدة الكاتب الكسي تولستوي، أو فلاديمير ماكانين (Vladimir Makanine)، انهم يذرعون العالم، وقد أطلقتهم البروسترويكا، سعداء بأن يعلنوا لهذا العالم أن ثمة أقلاماً جديدة في الاتحاد السوفياتي. قصص وحكايات واستعارات عن القلق («غليظ وثقيل ومرتبك، ذلك القلق الذي يأتي ليجلس مطأطىء الرأس على حافة السرير»)، ورؤى طفوليّة، وانطلاقات خفيفة للخيال منتفخة كحقد الوحدة: هكذا هي قصص تاتيانا تولستوي، غريبة، اسطورية وشاعرية. «في البدء كانت الطفولة»، تقول تاتيانا، وترقرق حكاياتها كدموع طفل مُسحت على عجل. ثمة روعة في هذه الكتابة البرّاقة «وما هي الحياة؟ مسرح ظلال صامت، أو تحابك أحلام، أو دكانة نصّاب؟».

ولكتابة «فلاديمير ماكانين» السحر نفسه، الا أن هذا السحر أكثر عمقاً. «فالأصوات» هي قصة نصف مجنونة ونصف واقعيّة، ويقدّم المؤلف نفسه فيها في البدء كمؤلف يبحث عن ناشر، ويقترح علينا عدّة تنوعات للموضوع نفسه. «إن المنهج قد صُفل منذ زمن طويل: تتناول أنت صفات الشخصية المؤلفة والمعروفة، أو تصميمات أو بصمات مقولبة سبق أن استعملت كثيراً، وتضيف الى ذلك عناصر كبيرة جاهزة. وعجوز قصتك الصغير يتخبّط بالوقت الذي فرضته أنت عليه، يدخل فيك، ويدعك تبتلعه: فيولد الأدب.. وهكذا تدخل الأصوات فينا، وتتسرّب الى المرء بعمق، بحيث أن المسألة الأساسية تصبح أن يعرف المرء أيهما الأقوى. هو أم الأصوات؟». ويخلّف حوار ماكانين بين

الأصوات والحياة ارتباكاً يعيد المؤلف أصله الأدبي الى دوستويوفسكي وتشيكوف: إنه التهديد الدائم بين تفسّخ المنطق والتوازن الروائي، إنها «مجابهة مرّة مع مجرى الحياة العادية». هذا هو الأدب.

أين هو اذن مذهب «الواقعية الاشتراكية» في الأدب، ذلك المذهب الذي ولد عام ١٩٣٤ من برنامج أدبي ينسجم والشيوعية في الاتحاد السوفياتي؟

الواقعية الاشتراكية(١)

ان «الواقعية الاشتراكية»، التي ولدت رسمياً منذ أكثر من نصف قرن، (١٩٣٤) أثناء انعقاد مؤتمر الكتاب السوفيات، تميل الى الاختفاء.

وهذا أمر منطقي: فهذا البرنامج الأدبي ولد عندما كانت الشيوعية قوة صاعدة في الاتحاد السوفياتي والعالم، ومن هذه القوة، كان يستمدّ أحد جوانبه الايديولوجية الأكثر أهمية. وهي هذه المرحلة التي تشهد فيها الشيوعية السوفياتية والعالمية وضعاً متأزماً، جداً، فقد أصبحت نظريتها متفسّخة جزئياً. وحتى وإن بقيت الماركسية اللينينيّة، فإن الواقعية الاشتراكية قد أصبحت منذ الآن غير ملائمة ومدانة. خاصة وأنها قد «أضاعت منذ بعض الوقت عظمتها الخادعة التي كانت تتمتع بها من قبل»، وقد أصبحت صيغة بوروقراطية فارغة تسمح للحكام السياسيين والثقافيين الشيوعيين بالسيطرة بطريقة إرهابية على الحياة الأدبية البائسة في الاتحاد السوفياتي.

وفي الوقت الذي يجدّد فيه الفريق السوفياتي الحاكم صورته ويرغب في تجنيد القوى الاجتماعية والثقافية المستعدّة للتعاون معه، تحدث تغيرات كبيرة على الصعيد الايديولوجي للتّخلص من كل ما أصبح خطراً وغير مجدٍ كالواقعية الاشتراكية، وإعداد مراقبة أكثر ليونة وحداثة على الاتجاهات الجديدة. وتبقى ثلاثة مبادىء في الايديولوجية الشيوعية السوفياتية مقدّسة: الماركسية والثورة ولينين، الى جانب دور الحزب الشيوعي الموجِّه. ولكن فيما كانت هذه المبادىء تلمس جميع ميادين الحياة الاجتماعية والثقافية، فهي اليوم تدع المكان لنشاط ثقافي أقلّ رقابة. ويمكننا القول بأن النظام أُجبر على الاعتراف بعلاقة جدلية بين أعلى السلطة والقوى الاجتماعية والثقافية، بالرغم من أن هذا الاعتراف يكمن ضمن مؤسسات أحكمت حدودها.

وفي الصحافة الأدبية السوفياتية اليوم، تضاعفت المداخلات المؤيدة أو المعارضة للواقعية الاشتراكية. ومناقشة هذه العقيدة وحدها، التي كانت لعدة عهود «دوغما» مطلقة، لها دلالتها وهي بحدّ ذاتها إيجابية. وفي نهاية المطاف، يمكن لمسألة الواقعية الاشتراكية أن تُحلّ على النحو التالي: من يريد أن يكون واقعياً إشتراكياً، فليكن كذلك! ومن لا يريد ذلك، فليس عليه أن يكون كذلك!. ان «فضيحة» هذه العقيدة الأيديولوجية والأدبية لا تكمن في مضمونها، إذ أن مضمونها ليس قابلاً للنقاش أكثر من أية عقيدة أخرى، بل تكمن في أنها فُرضت كمقياس أدبي وحيد، بمساعدة جهاز رقابة وسيطرة بوليسية تامة. وحتى الماركسية في جانبها التطبيقي يمكن معالجتها بالبساطة نفسها. ولو كانت الماركسية في البلدان الشيوعية مسألة «خاصة»، ايديولوجية مُعتَنقة بكل حرية، لما كان هذا الأمر يعنينا. إلا أنه، في تلك البلدان، تكون الماركسية (أو الماركسية ـ اللينينية) ايديولوجية دولة، دولة ذات حزب واحد. ولقد كانت نتائج هذا الاحتكار مفجعة لحضارة تخضع لمثل هذه السيطرة. إن جميع الذين يتابعون الحياة الثقافية في السنوات الأخيرة في الاتحاد السوفياتي لا يستطيعون سوى أن يبتهجوا لهذه الحريّة النسبية، بالرغم من أن المحرمات الأساسية، (الماركسية ولينين والحزب والثورة) لا تزال تشكل عواقب تضرّ بالحياة الثقافية الحرّة، وتشكلّ فساداً ذهنياً حقيقياً لحضارة روسية عريقة. ولذا تحتفظ صيغة «سوجلتنسين» ضدّ نظام يسمح الآن، لكي يخرج من أزمة تاريخية، «بنصف الحقيقة».

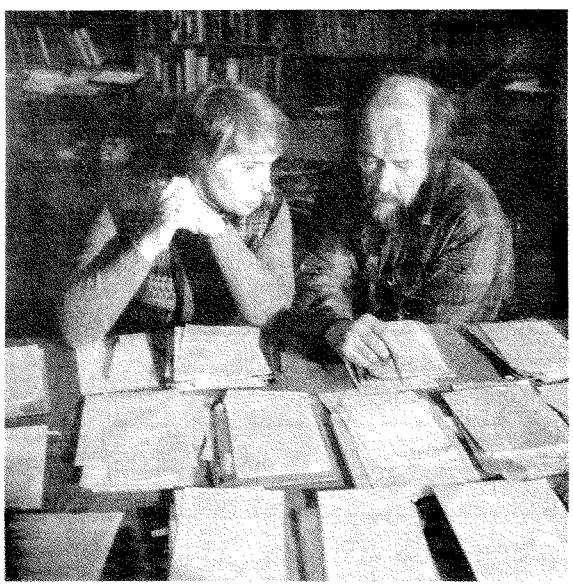

سوجلتنسين (Soljenitsyne): في تشرين الأول الماضي، مُنع صدور النص الكامل لكتابه «أرخبيل الكولاك».

(١) كتب هذه الفقرة فيتوريو سترادا (VITTORIO STRADA)، وهو مدرّس في جامعة البندقية. ألف كتاب «التاريخ الماركسي» الضخم ويساهم في تأليف كتاب «تاريخ الأدب الروسي».

ويشكّل مقال الكسندر كانغنوس (Alexandre Gangnous)، الذي نشر مؤخراً في مجلة نوفي مير (Novy Mir)[1] (أي العالم الجديد)، مثالاً مثيراً يتعلّق اطروحته حول الواقعية الاشتراكية. وقد طوّر كانغنوس إطروحته حول نظرية لينين المتعلقة «بالبارتيينوسة» (Partiinost) أي «روح الحزب»، الذي يعتبره لينين كمنظّم للحياة بكل جوانبها، بما فيها الجانب الثقافي في مجتمع شيوعي. ويحلّل كانغنوس، ككثير من العقائديين السوفيات اليوم، مقالاً شهيراً للينين عن «البارتيينوسة» بقوله إن لينين لم يكن يقصد الأدب بكامله، بل الأدب السياسي فقط، وإن هذا نوع من الأدب يجب أن يكون مراقباً من قبل الحزب الشيوعي. ويضيف أن ستالين قد طبّق هذه النظرية مبتعداً عن خط لينين «المقدّس». وبالتالي يكون ستالين قد شوّه فكر لينين. إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل أن مقال لينين المذكور هنا ظهر عندما نُشر عام ١٩٠٣، كطعنة واضحة للحريّة السياسية والفكرية والأدبية، من قبل الفيلسوف نيكولاي برديائيف (Nicolai Berdiaiev) والكاتب فاليري بريوسوف (Valeri Briousov) الذي كتب ضد لينين دفاعاً نبوياً عن الحرّية المهدّدة.

والتناقض الأساسي يتضح في أن الواقعية الاشتراكية السوفياتية، في الوقت الذي تُنتقد وتُستبعد، تولد تحت أشكال جديدة. إن تقديس لينين واللينينيّة، دون الأخذ بعين الاعتبار أي تحليل تاريخي وسياسي جادّ، من ناحية، و«شيطانية» ستالين والستالينية من ناحية أخرى، كمسؤولين وحيدين عن الجرائم والشر: كل هذا يدمغ مشروع الواقعية الاشتراكية والماركسية ـ اللينينيّة: بأنه مشروع مانوي[2] للنور والظلام، «للبطل الايجابي» و«البطل السلبي»، والعِظة القائلة بأن «الحزب دائماً عن حق». إن الأمثال لهذا التناقض في الواقعية الاشتراكية لا تقتصر على المداخلات السياسية فحسب، بل تتضمن الأعمال الأدبيّة الأقرب الى روح السياسة الغورباتشيفيّة اليوم، كما يمكننا ملاحظة ذلك من أعمال «ريباكوف» (Rybakov) وشاتروف (Chatrov).

وهذا التناقض يظهر خاصة في الصحف «الوطنية ـ المحافظة»، كمجلة ناش سوفريمنيك (Nach Sovremennik). «معاصرنا» حيث يُحافظ على القيم الأسطورية لحضارة روسية تقليدية، دون أن تُعارض مبادىء التجربة البولشيفية التاريخية، التي تُحلّل كفترة تطوّر الدولة الروسية وحضارتها المميّزة، على عكس الحضارة الغربية التي هي تعدّديّة لكنها تعبير عن مجتمع الاستهلاك. وقد أصبح مقال نُشر في ناش سوفريمنيك رمزاً لهذا الاتجاه: دراسة

ريباكوف (Rybakov): كتابه «أطفال الأربات» يجسّد خط البيروسترويكا في بحثها المعتدل لأسباب الشرّ.

طويلة لناقد تاريخ الأدب الروسي الشهير فاديم كوجينوف (Vadim Kojinov) بعنوان «الحقيقة التطبيقيّة والحقيقة النظريّة». ومن صلب موضوع كوجينوف تحليله لرواية أناتولي ريباكوف (Anatoli Rybakov) «أطفال الأربات»، وهو عمل أثار انتباه النقاد أكثر مما يستحق، حتى النقاد الغربيين منهم. الا أن هذا العمل يتلاءم اليوم والاهتمام الكبير الذي يُوجّه للطعن بصورة ستالين. وريباكوف يضع كأساس لروايته التصوّر المنتشر اليوم في الأدب السياسي الرسمي ـ الذي يُظهر التناقض بين ستالين الشيطاني والإجرامي، الذي أفسد الماركسية ـ اللينينيّة الحقيقية بسبب طموحاته الشخصية المجنونة من جهة، والشيوعيّة المثالية التي، لولا تدخّل ستالين، لكانت قد تطوّرت بهدوء، من جهة أخرى.

إن هذه الحرّية الداخلية، هذا التجاوز ولو الجزئي للعقائد القديمة الكاذبة، إنما هي الخطوة الأولى نحو فكر متحرّر صادق. والمشكلة تبقى أن يقابل هذا الفكر الحر ذات يوم مؤسسات حرّة، مؤسسات تتجاوز حاضر نظام الحزب الواحد والايديولوجية الواحدة. وهذا المستقبل الصعب «الطبيعي» المحتمل، يساهم النشاط الأدبي، بدوره، في ولادته.

---

(١) «نوفي مير» مجلة تصدر من موسكو ـ وسرجي رليكوين (SER-GUEI ZLYGUINE) هو رئيس تحريرها ـ وهي مجلة ليبرالية، نشرت رواية باسترناك (PASTERNAK)، «دكتور زيفاكو».

(٢) (١) مانوي: من إتباع ماني الفارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام. (م.م).